فأجابت: «نعم، فهو يزور لندن اليوم، ولن يكون في المنزل.»

– «حسنًا، سأستقل إذن أنا وواطسون القطار، ونلقاك هناك بعد ظهر اليوم.»

قالت: «شكرًا لك يا سيد هولمز. لقد بدأت أشعر بتحسن بالفعل. والآن، إذا كان ذلك كل ما في الأمر، فسوف أراك بعد ظهر اليوم.» أسدلت زائرتنا الحجاب على وجهها، ورحلت.

قلت لهولمز: «هذه قضية غريبة وخطيرة يا هولمز. فمن واقع كل ما سمعناه، من المؤكد أن أخت الآنسة ستونر كانت بمفردها عندما قُتلت. لكن ما صوت الصفير؟ وما معنى الكلمات الأخيرة للمتوفاة؟»

بدأ رفيقي حديثه قائلًا: «يبدو لي أن الأمر يتعلق بعِصابة المسافرين. كما أنه من الواضح أن دكتور رويلوت سيخسر أموالًا إذا تزوجت ابنتا زوجته، لذا فهو لا يرغب في ذلك. أما عن الرنين المعدني، فربما يكون سببه المزلاج عند فتح النافذة.»

قلت له: «لكن إذا كان الأمر كذلك، فكيف إذن قتل المسافرون الآنسة ستونر؟ لا يبدو الأمر منطقيًّا ليَّ.»

– «أتفق معك يا واطسون، ولذلك يجب علينا زيارة ستوك موران اليوم.»

وفي تلك اللحظة، فُتح الباب فجأة، واندفع رجل ضخم إلى داخل الغرفة. نظر إليَّ وإلى هولمز، وغضب شديد يرتسم على وجهه.

صاح قائلًا: «أيكما هولمز؟»

أجاب هولمز بهدوء: «أنا هولمز، من أنت؟»

صاح الرجل: «أنا دكتور جريمسبي رويلوت. لقد علمت أن ابنة زوجتي كانت هنا، وأنا أعلم أنك يا سيد شيرلوك هولمز شخص مثير للمتاعب. ماذا قالت لكما؟»

ضحك هولمز، وقال: «رجاءً، أغلق الباب وأنت تخرج من هنا يا دكتور رويلوت؛ فالطقس بارد بالخارج.»

«سأغادر عندما انتهي من أمرك. أنا رجل قوي يا سيد هولمز. من الأفضل ألا تتدخل في شئون الغير، وإلا …!» وأمسك رويلوت بقضيب تذكية النار المعدني من المدفأة، وحمله بين يديه، وثناه وكأنه من المطاط. وألقى بهذه القطعة المعدنية في المدفأة، ورمقنا بنظرة أخيرة، ثم اندفع مغادرًا المكان.

بدأ هولمز الحديث قائلًا: «حسنًا يا واطسون. لقد ازداد التحقيق إثارة. كل ما أتمناه ألا تعني زيارة الدكتور لنا مزيدًا من الخطر للآنسة ستونر. أعتقد أننا يجب أن نتوجه إلى

ستوك موران على الفور. لنذهب إلى محطة القطار. وأعتقد يا واطسون، أنه من الأفضل أن تحضر سلاحك؛ فلا أود أن يفعل دكتور رويلوت بنا ما فعله بالقضيب المعدني.»

استقللت أنا وهولمز القطار من لندن إلى مدينة ليزيرهيد. ومن هناك ركبنا عربة تجرها الخيول. لكن قبل وصولنا إلى ستوك موران، رأينا الآنسة ستونر تسير عبر أحد الحقول متجهة إلى الطريق. لقد جاءت من منزلها المحفوف بالمخاطر للقائنا.

قالت لنا بعد أن رحلت العربة: «أنا سعيدة للغاية لوجودكما هنا. لا يزال دكتور رويلوت في المدينة، ولن يعود إلا بعد فترة.»

قال هولمز: «لقد سعدنا بمقابلة زوج والدتك! لقد جاء لزيارتنا بعد أن غادرت.»

صاحت خائفة: «هل تعني أنه كان يتبعني؟»

أجاب هولمز: «نعم، يجب علينا توخي الحذر الشديد، كما يجب أن نفحص الغرف فلا تزال لدينا الفرصة لذلك.»

كان ستوك موران قصرًا قديمًا رمادي اللون مشيدًا من الحجارة. بدا أحد جانبي المنزل فارغًا، وكانت النوافذ الموجودة بذلك الجانب مكسورة ومغطاة بالألواح الخشبية. أما الجانب الآخر، فيبدو أنه كان يُعتنى به. ويشير الدخان المتصاعد من المداخن إلى أن الأسرة كانت تعيش في هذا الجزء من المنزل.

قال هولمز، وهو يشير إلى ثلاث نوافذ: «أرى أن هذه هي نوافذ غرف النوم: غرفة الدكتور، ثم غرفة أختك، ثم غرفتك، أليس كذلك؟»

أجابت آنسة ستونر: «بلى، ويمكنك أن ترى أين كان يعمل العمال. لكنني لا أعتقد يا سيد هولمز أن هذه الأعمال كانت ضرورية. أظن أنها كانت وسيلة لجعلي أنام في غرفة نوم أختي.»

قال رفيقي: «هذا أمر مثير للغاية. رجاءً يا آنسة ستونر، ادخلي غرفة نوم أختك، وسأظل أنا وواطسون هنا بالخارج، وتأكدي من قفل النافذة.»

دخلت الفتاة، وأخرج هولمز سكينًا من جيبه، وحاول فتح النافذة من الخارج. وعندما لم يستطع، استخدم عدسته المكبرة لفحص مفصلات النافذة وإطارها. وأخيرًا قال: «لا، لا يمكن لأحد الدخول عبر هذه النوافذ. لنستكمل يا واطسون بحثنا عن أدلة بالداخل.»

انضممنا إلى الآنسة ستونر في غرفة أختها. جلس هولمز على أحد الكراسي، ودرس بعناية كل شيء حوله. كان هناك حبل معلق من السقف، ويصل إلى السرير. كان كالحبال التي تُستخدم لرن جرس ما، إشارة لاستدعاء الخدم. وكان طويلًا حتى إن طرفه وصل إلى الوسادة.

سأل هولمز: «أين الجرس الذي يُرن باستخدام هذا الحبل؟»

أجابت آنسة ستونر: «في غرفة مدبرة المنزل.»

أبدى هولمز ملاحظة قائلًا: «يبدو جديدًا، هل طلبته أختك؟»

– «لم يمض على وجوده سوى عامين، لكن لا، لم تطلبه أختي.»

قال هولمز: «أتساءل لم قد يحتاج المرء إلى حبل جرس كهذا هنا؟» ونهض من على الكرسي، وأخرج عدسته المكبرة مرة أخرى، وجثا على ركبتيه ويديه. وأخذ يزحف جيئة وذهابًا على الأرضية بحثًا عن أدلة، ثم فحص الجدران بالطريقة ذاتها.

سار هولمز إلى السرير، وفحص حبل الجرس. وأخيرًا، أمسك به وسحبه، وقال: «لماذا لا يعمل؟ إنه معلق بخطاف في السقف، ولا يرن أي جرس على الإطلاق، هذا مثير للغاية. كما أن فتحة التهوية الموجودة في السقف غريبة.» وأشار إلى فتحة صغيرة بجوار المكان الذي يتصل فيه حبل الجرس بالسقف، ثم سأل: «هل كانت فتحة التهوية موجودة هنا من قبل يا آنسة ستونر؟»

فأجابت: «كلا، لقد وُضعت في الوقت نفسه تقريبًا الذي وُضع فيه حبل الجرس.»

تفقدنا بعد ذلك غرفة نوم دكتور رويلوت. وفحص هولمز بعناية السرير، ورفًّا للكتب، وكرسيًّا بمسندين موجودًا بجانب السرير، وطاولة، وخزانة معدنية كبيرة. ولاحظ وجود طبق به لبن على الخزانة.

سأل هولمز: «هل لدى دكتور رويلوت قطة؟»

أجابت آنسة ستونر: «كلا.»

انحنى صديقي بعد ذلك وفحص الكرسي الخشبي، وقال أثناء نهوضه: «نعم، هكذا الأمر إذن. لكن انتظرا، ما هذا؟» وأشار إلى حبل معقود على أحد أعمدة السرير. «يا له من عالم لعين يا واطسون! خاصةً عندما يتحول رجل زكي إلى مجرم. لقد رأيت ما يكفي يا آنسة ستونر. لنترك هذه الغرف.»

وما إن خرجنا حتى استدار هولمز إلى الفتاة، وقال لها: «من المهم للغاية أن تفعلي كل ما أخبرك به، فقد تتوقف حياتك على ذلك. عندما يعود دكتور رويلوت، يجب أن تبقي في غرفة أختك. وعندما تسمعين الليلة ما يدل على وجود زوج والدتك في غرفة نومه، عليكِ أن تفتحي نافذتك، وضعي مصباحًا في مكان يمكن رؤيته من الخارج، ثم غادري الغرفة بهدوء، وعودي إلى غرفتك. وتأكدي من إغلاق الباب بالقفل.

سنراقبك أنا وواطسون، وعندما نرى المصباح، سندخل غرفة نوم أختك من النافذة، ونقضي الليلة هناك.»

قالت آنسة ستونر: «أعتقد يا سيد هولمز أنك تعلم من قتل أختي. عليك أن تخبرني! هل ماتت من الخوف؟»

أجاب هولمز: «لا، لا أعتقد ذلك. لكن حتى أتأكد من الأمر، هذا كل ما يمكنني إخبارك به. أنا آسف. والآن يجب أن نرحل أنا وواطسون قبل أن يعود زوج والدتك. لتفعلي ما أخبرتك به، وسيكون كل شيء على ما يرام.»

رحلت أنا ورفيقي تاركين الآنسة ستونر في قصر ستوك موران. كان هناك نُزل قريب من المنزل تمكننا من حجز غرفة فيه. وكان بإمكاننا مد نظرنا من هناك عبر أحد الحقول لنرى نوافذ غرف النوم. انتظرنا أن يخيم الظلام.

قال هولمز، ونحن جالسان نراقب المنزل: «يجب أن أحذرك يا واطسون، من أننا قد نتعرض للخطر الليلة.»

سألته: «خطر؟ لكن كيف؟ لم أر أي شيء ظهر اليوم ينذر بأي خطر. لقد لاحظتَ بالتأكيد ما لم ألاحظه في هذه الغرف.»

رد هولمز: «كلا، لقد رأينا الأشياء نفسها، لكنني توصلت إلى ما تعنيه هذه الأشياء. أولًا، توجد فتحة تهوية، وهو ما توقعت وجوده. فقد قالت الآنسة ستونر إن أختها كانت تشم دخان سجائر زوج والدتها ليلة وفاتها. ومن هنا توصلت إلى وجود فتحة تصل بين الغرفتين. وهناك أيضًا حبل الجرس الذي لا يرن أي جرس، بالإضافة إلى الحقيقة المثيرة للانتباه، وهي أن فتحة التهوية وحبل الجرس قد وُضعا في الغرفة في الوقت نفسه.

الأمر الذي ربما لم تلاحظه هو سمة غريبة للسرير؛ فهو مثبت بالأرضية، مما يعني أنه لا يمكن تحريك السرير بعيدًا عن حبل الجرس وفتحة التهوية. نعم يا واطسون، نحن نتعامل مع مجرم مخيف. وقد نقضي ليلة مرعبة.»

أخذنا نراقب المنزل المظلم البعيد ساعات. وأخيرًا ظهر ضوء في إحدى النوافذ، وكان إشارتنا. تركنا النُزل وسرنا عبر الحقول. وفجأة، بينما كنا نعبر المرج، اندفع جسم داكن من بين الشجيرات، وطارت قدما هذا الكائن وذراعاه بعنف وهو يهرب في الظلام.

قلت مرتاعًا: «يا إلهي! ما هذا؟»

ضحك هولمز بهدوء، وقال: «هذه قضية غريبة بلا شك يا واطسون. كان ذلك قرد البابون الخاص بالدكتور. والآن لنتسلل سريعًا من نافذة غرفة النوم قبل أن نرى الفهد أيضًا.»

زحفنا إلى الداخل عبر النافذة المفتوحة، وأغلقناها بعد ذلك. وما إن دخلنا حتى همس إلي هولمز: «لا تصدر أي صوت يا واطسون. سأجلس على السرير، ولتجلس أنت على هذا

الكرسي. وليكن السلاح في متناول يدك.» كان هولمز قد أحضر عصا معه، فوضعها على السرير. قال هولمز: «يجب أن نجلس في الظلام، فنحن لا نرغب في أن يرى دكتور رويلوت أي شيء.» وأطفأ المصباح ليسود الظلام المكان تمامًا.

مرت الساعات ونحن ننتظر في صمت. دوَّى صوت جرس كنيسة من بعيد، وسمعنا كذلك صوت طائر، ثم صوتًا ما كان ليصدر إلا من قط بري كبير. لقد كان الفهد يسير بجوار نافذة غرفة النوم.

بعد فترة انتظار طويلة، لمحت بصيص ضوء ضعيف من فتحة التهوية الموجودة فوق السرير. اختفى الضوء سريعًا، وتبعته رائحة زيت محترق. أضاء شخص ما مصباحًا في الغرفة المجاورة، ثم صدر صوت حركة تبعه صمت.

مرت نصف ساعة قبل أن أسمع أي شيء آخر. كان الصوت هذه المرة صوت فحيح منخفضًا، مثل البخار الصادر عن قدر به سائل يغلي. هب هولمز فجأة من السرير، وأشعل عود ثقاب، وأمسك بعصاه، ولوح بها تجاه حبل الجرس. في الوقت نفسه سمعت صوت صفير منخفضًا.

صاح هولمز: «هل رأيته يا واطسون؟ هل رأيته؟»

كان رفيقي ينظر إلى أعلى تجاه فتحة التهوية. في تلك اللحظة هزت صرخة مدوية أرجاء ستوك موران. كانت صرخة ألم وخوف تحولت بعد ذلك إلى صيحة غضب. وبينما كنا نحدق أنا وهولمز أحدنا في الآخر، أخذت الصيحة تتلاشى حتى ساد الهدوء.

ركضنا في الرواق وصولًا إلى غرفة نوم دكتور رويلوت. طرق هولمز الباب بشدة، لكن لم يُجب أحد، ففتحنا الباب ودخلنا. كانت الغرفة مضاءة بمصباح، ولاحظنا أن الخزانة مفتوحة. كان دكتور جريمسبي جالسًا على الكرسي الخشبي الذي سبق أن فحصه هولمز ذلك اليوم، وكان يرتدي رداء النوم وخُفين، ويوجد حبل ملفوف فوق حِجره.

لم يحرك الدكتور ساكنًا، وكان رأسه متجهًا ناحية السقف، وعيناه محدقتان بأعلى. وكانت هناك عِصابة صفراء غريبة ملفوفة حول رأسه بإحكام. وكانت تغطيها نقط بنية اللون.

همس هولمز قائلًا: «العِصابة! عِصابة العين المنقطة!»

عندما تقدمت خطوة للأمام، بدأت العِصابة في التحرك، ثم خرج رأس ثعبان وعنقه المنتفخ من بين شعر الدكتور.

صاح هولمز: «إنها أفعى المستنقعات! أكثر الأفاعي فتكًا في الهند. لقد نال الدكتور جزاءه بالسلاح نفسه الذي كان يرتكب به جرائمه؛ فمات ملدوغًا.» أخذ هولمز الحبل ولفه

حول عنق الأفعى، فأخافها ونقلها بحرص إلى داخل الخزانة. «ليس هناك ما يمكننا فعله له، لكننا يجب أن نُبعد الآنسة ستونر عن هذا المكان، ونتصل بالشرطة.»

في اليوم التالي، وأثناء عودتنا إلى لندن بالقطار، أوضح لي هولمز حقائق القضية، فقال: «في البداية يا واطسون، لم أكن أسير في الطريق الصحيح. كنت أعلم أن أخت الآنسة ستونر قد استخدمت كلمة: «عِصابة»، وعلمت كذلك بأمر المسافرين الذين يخيمون بالجوار، فظننت أن حل اللغز يكمن في عِصابة المسافرين.

لكن عندما فتشنا الغرف، أدركت أنه لم يدخل أحد إلى الغرفة المغلقة. كما لاحظت أيضًا حبل الجرس، وفتحة التهوية، والسرير الذي لا يمكن تحريكه. وأصبح من الواضح أن الحبل كان وسيلة لإيصال السرير بفتحة التهوية. وعلى الفور، فكرت في وجود أفعى في الأمر. فإذا كان دكتور رويلوت لديه فهد وقرد بابون، فيسهل عليه اقتناء أفعى. ونظرًا لممارسته الطب في الهند، فهو يعلم أيضًا أن سم هذه الأفعى لا يمكن اكتشافه، وأن لدغتها ليس لها أثر مرئي.»

تابع هولمز موضحًا: «عندما عُقدت خطبة ابنة زوجته جوليا، لم يرغب في أن تحصل على المال. لذلك وضع حبل الجرس في غرفتها، وزودها بفتحة التهوية. وبعدما وضع الاثنين في الغرفة، انتظر حتى نامت ابنة زوجته. ومن خلال النظر إلى الكرسي الموجود في غرفته، توصلت إلى أنه قد وقف عليه للوصول إلى فتحة التهوية. وتمثلت خطته في أن يضع الأفعى في فتحة التهوية بحيث يزحف هذا المخلوق الفتاك عبر الفتحة، وينزل على الحبل ليصل إلى سرير الضحية.

في بادئ الأمر لم تهاجم الأفعى جوليا ستونر، لكن الدكتور دربها على العودة عند سماع صوت صفير. وهذا هو الصوت الذي سمعته جوليا. كما أن اللبن ساعد في إغراء الأفعى بالعودة إلى غرفة رويلوت، فكان يمسك بها باستخدام الحبل ويضعها في الخزانة. أما صوت الرنين الذي سمعته الأختان، فكان صوت غلق الخزانة.

ولذلك أنصت في الليلة الماضية إلى أضعف صوت يمكن أن يصدر عن أفعى. وعندما سمعت الحفيف، أشعلت عود ثقاب، وهاجمت هذا الكائن، فانزلق عائدًا إلى غرفة دكتور رويلوت. لكنني ضربته بالعصا، الأمر الذي أغضبه، وعندما عاد إلى غرفة نوم الدكتور هاجمه.»

تطلع شيرلوك هولمز خارج النافذة إلى منظر الريف الإنجليزي. كان من الصعب عليه تصور وقوع أحداث الليلة الماضية في مثل هذا المكان الهادئ. قال هولمز: «لقد قُتل القاتل … قُتل بسلاح الجريمة الغريب ذاته الذي ارتكب به جرائمه.»

المترجم اليوناني

طوال سنوات معرفتي بشيرلوك هولمز، لم يتحدث مطلقًا عن أسرته. ربما لهذا السبب كنت أراه أحيانًا رجلًا بلا مشاعر. كان الذكاء عنده أهم من مشاعر الصداقة والحب. ومع عدم وجود أصدقاء أو أقرباء له، كان أشبه بعقل دون قلب. لذلك اندهشت عندما بدأ يتحدث في أحد الأيام عن أخيه.

كان ذلك مساء أحد أيام فصل الصيف، وأنا وهولمز ننال قسطًا من الراحة بعد العشاء. انتقلنا في حديثنا من موضوع لآخر. وبصورة ما، بدأنا التحدث عن العوامل التي تشكل شخصية المرء. وتساءلنا هل نرث الشخصية التي نصير عليها من والدينا، كما يرث الابن مثلًا عيني والده، أو الابنة شعر والدتها؛ أم أن كل شيء يعتمد على كيفية تنشئتنا.

قلت له: «حسنًا يا هولمز، يبدو لي أن والديك قد ربياك بأسلوب يصعب أن تكون معه أي شيء آخر غير المحقق العظيم الذي أصبحت عليه.»

رد هولمز: «يحمل كلامك بعض الحقيقة يا واطسون، لكنني أعتقد أنه من هذا المنطلق لا بد أن ينتشر الأمر بين أفراد العائلة. لتأخذ مثالًا على ذلك أخي مايكروفت. بالرغم من أننا تربينا بالأسلوب ذاته، فإنه يتمتع بمهارات تفوق مهاراتي بكثير، أؤكد لك ذلك.»

سألته: «إذن، لماذا لم يشتهر مثلك؟»

– «يتمتع مايكروفت بلا شك بقدرة أكبر على الملاحظة والاستدلال، لكنه لا يهتم بالأمور الأخرى التي يستلزمها عملي. فهو لا يتمتع بالنشاط اللازم لجمع الأدلة أو ملاحقة المشتبه بهم. ولا يمكن أن يزعج نفسه بالتجول في الريف للتحقق من صحة أفكاره. لذلك، يستخدم مايكروفت مهارته في التعامل مع الأرقام في تولي بعض المهام لحساب الحكومة.

إنه شخص روتيني يا واطسون، ويفعل الأمور ذاتها كل يوم. في الواقع إذا كنت ترغب في لقائه، فسيسعدني أن أعرّفك به. فهو يكون كل يوم في الوقت نفسه في نادي ديوجينيز كلوب. يمكننا الذهاب إلى هناك الآن.»

قلت له بعد أن تركنا شارع بيكر: «لم أسمع مطلقًا عن نادي ديوجينيز كلوب.»

رد هولمز: «لم يسمع به كثيرون. أعضاؤه مجموعة غريبة من الناس؛ فهم لا يذهبون إلى النادي للالتقاء بالأعضاء الآخرين. في الحقيقة هناك قاعدة تمنعهم من التحدث فيما بينهم. فيرتادون النادي للتمتع بالكراسي المريحة والصحف، ولأنه أيضًا أحد الأماكن القليلة التي يمكن أن ينفردوا فيها بأنفسهم.»

وصلنا سريعًا إلى نادي ديوجينيز كلوب. وفي الداخل ألقيت نظرة على غرفة كبيرة، ورأيت مجموعة من الرجال يجلسون على كراسٍ بمساند، ويقرءون الصحف. لم يكونوا يتحدثون فيما بينهم. وقد أوضح هولمز أن هناك غرفة واحدة مسموح فيها بالتحدث. تركني في هذا المكان، وانتظرت في هدوء. عاد صديقي سريعًا ومعه رجل ضخم ممتلئ الجسم. كان ذلك أخاه الأكبر، مايكروفت هولمز. وقد عكس تعبير وجهه حضور الذهن ذاته الذي يظهر على هولمز.

قال مايكروفت: «تسعدني مقابلتك يا دكتور واطسون. لقد اشتهر أخي بفضل ما تكتبه من قصص عما يخوضه من مغامرات. بالمناسبة يا شيرلوك، لقد توقعت أن تتصل بي الأسبوع الماضي. ظننت أنك قد ترغب في معرفة أفكاري بشأن قضية مانور هاوس. لقد كان آدامز، أليس كذلك؟»

قال هولمز، ونحن نهم بالجلوس: «نعم، كان آدامز.»

قال مايكروفت، وهو يلقي نظرة من النافذة على حركة المرور في الشارع: «أتمنى أن يكون نادينا قد أعجبك يا دكتور واطسون، إنه مكان رائع لملاحظة الناس. على سبيل المثال: الرجلان اللذان يسيران باتجاهنا …»

ألقى هولمز نظرة خاطفة من النافذة، وقال: «لاعب البلياردو والرجل الآخر؟»

أجاب مايكروفت: «نعم، ما الذي تستنتجه عن الرجل الآخر؟»

وقف الرجلان خارج النافذة ليتحدثا. كان بإمكاني رؤية علامات طباشير على سترة الرجل الأول. وكان من الواضح أن مصدر هذا الطباشير هو لعب البلياردو. أما الرجل الثاني، فكان قصيرًا، ولون بشرته أسمر داكن نتيجة للتعرض للشمس. كان يرتدي قبعة ويحمل عددًا من الرُزم تحت ذراعه.

أبدى هولمز ملاحظة قائلًا: «أعتقد أنه جندي.»
قال مايكروفت: «لقد ترك الجيش مؤخرًا.»
– «خدم في الهند ...»
– «ضابط ...»
أضاف هولمز: «أظن بسلاح المدفعية الملكي.»
قال مايكروفت: «أرمل.»
– «لكن لديه طفل يا عزيزي مايكروفت.»
– «طفلين يا عزيزي شيرلوك، طفلين.»
قلت ضاحكًا: «هذا كثير حقًّا.»

رد هولمز: «على الإطلاق يا واطسون. لتنظر فقط إلى كيف يقف، وإلى ملابسه، وكيف يسير. من السهل ملاحظة أن هذا الرجل كان عسكريًّا وأنه ضابط. وكما تعلم، يخدم الكثير من جنودنا في الهند. وتشير سُمرة بشرته إلى أنه عاد مؤخرًا من هذا البلد.»

استكمل مايكروفت حديثه: «لا يزال يرتدي حذاءه العسكري طويل الرقبة، مما يشير إلى أنه لم يترك الجيش منذ فترة طويلة.»

أضاف هولمز: «وهو لا يسير مثل الجنود الذين سبق لي رؤيتهم في سلاح الفرسان ويمتطون الخيول. وهو أيضًا ليس في سلاح المهندسين الملكي، فوزنه الثقيل لا يتناسب مع العمل الذي يؤدونه. لكنه يُميل قبعته على أحد جانبي رأسه. يمكنك ملاحظة أن أحد جانبي جبينه أقل سُمرة من الآخر. الأمر الذي لا يعني سوى أنه في سلاح المدفعية.»

قال مايكروفت: «توضح ملابسه كذلك أنه في حالة حداد، وفقد شخصًا عزيزًا عليه. وبما أنه يشتري هدايا أطفال، فأعتقد أنه قد فقد زوجته. يحمل خشخيشة لطفل صغير، وكتابًا مصورًا لطفل أكبر سنًّا.»

أدركت حينها أن هولمز كان صادقًا تمامًا عندما وصف لي أخاه في وقت مبكر من ذلك اليوم.

قال مايكروفت: «بالمناسبة يا شيرلوك، هل تهتم بمعرفة تفاصيل قضية طُلب مني التحقيق فيها؟»

أجاب هولمز: «يسعدني ذلك يا أخي العزيز.»

رن مايكروفت الجرس، وكتب سريعًا رسالة على ورقة، ثم أعطاها للنادل.

أوضح مايكروفت الأمر قائلًا: «لقد طلبت من جاري الانضمام إلينا، اسمه ميلاس، وهو يوناني. لقد طلب مني التحقيق في أمر سأدعه يشرحه لكما.»

بعد بضع دقائق، انضم السيد ميلاس إلينا، وأخبرنا بقصته: «أعتقد أنكما قد عرفتما بالفعل أنني أكسب قوت يومي بالعمل مترجمًا يونانيًّا. على سبيل المثال: عندما يكون هناك نزلاء يونانيون لا يتحدثون الإنجليزية بالفنادق، فإنهم يتصلون بي. وفي بعض الأحيان يكون الاتصال في أوقات غريبة لأساعد مسافرين وصلوا لتوهم إلى لندن. لذلك فإنني لم أندهش عندما اتصل بي السيد لاتيمر منذ ليلتين. قال إن صديقًا يونانيًّا له كان يزوره، وإنه بحاجة لخدماتي. بدا في عجلة من أمره، ودفعني إلى الركوب سريعًا في عربة تجرها الخيول.

لم نكن قد ابتعدنا كثيرًا عندما فعل السيد لاتيمر أمرًا شديد الغرابة؛ لقد أخرج عصا صغيرة من جيبه، ووضعها على المقعد الموجود بجانبه، ثم أغلق نوافذ العربة. واندهشت عندما رأيت النوافذ مغطاة بالورق؛ فحجبت عني رؤية ما بخارج العربة.

أوضح لي بعد ذلك أنه لا يريدني أن أعلم إلى أين نحن ذاهبان. كما أخبرني أنه يجب علي عدم اللجوء إلى الشرطة، وسأحصل على مكافأة مقابل ما تكبدته من عناء. كان رجلًا ضخمًا، ولم يكن هناك ما يمكنني فعله.»

تابع ميلاس قائلًا: «سرنا مدة ساعتين تقريبًا حتى توقفت العربة. فتح السيد لاتيمر الباب وخرجت. كنا عند منزل ذي بوابة مقوسة الشكل، وعلى الجانبين يمتد فناء مليء بالحشائش والأشجار. فيما عدا ذلك، لم يكن لدي أية فكرة عن المكان الذي أنا فيه.

وبالداخل تركني السيد لاتيمر مع رجل أكبر سنًّا، قاسي الملامح، ويرتدي نظارات. حذرني هذا الرجل أيضًا من مخالفة ما قيل لي، وإن فعلت، فسأتعرض للمشكلات. وأوضح أن هناك رجلًا يونانيًّا في المنزل، وأنه يريدني أن أطرح أسئلة على هذا الرجل، وأترجم إجاباته إلى اللغة الإنجليزية. وأكد الرجل ذو النظارات على ضرورة عدم قول أي شيء آخر لذلك اليوناني.

اصطحبني إلى غرفة أخرى، كانت كبيرة وضعيفة الإضاءة. وكان بإمكاني رؤية أثاث باهظ الثمن، وشعرت بسجادة سميكة وفخمة تحت قدمي. كانت هناك مجموعة من الدروع اليابانية بجوار المدفأة. في تلك اللحظة، ظهر السيد لاتيمر ومعه اليوناني. وفزعت عندما رأيت وجهه الشاحب شحوب الموت. بدا ضعيفًا للغاية. وإلى جانب هذا المظهر السيئ الذي كان عليه، صدمتني أكثر رؤية الضمادات التي تغطي وجهه. كما اختفى فمه خلف قطعة شريط كبيرة. دفع السيد لاتيمر الرجل ليجلسه على كرسي آخر.

طلب مني الرجل ذو النظارات بعد ذلك أن أطرح مجموعة من الأسئلة، وأجاب الرجل المُضمَّد على كل منها بالكتابة على ورقة.»

تابع السيد ميلاس روايته الغريبة، بينما كنت أنا وهولمز ومايكروفت نستمع إليه: «كان السؤال الأول: هل ستوقع على الأوراق؟ وكانت إجابته: أبدًا! ثم أضاف: إلا إذا شهدتُ زواجها على يد قسيس يوناني أعرفه.

استمر ذلك فترة من الوقت، ثم طرأت على ذهني فكرة. ما إن تأكدت من أن السيد لاتيمر والرجل الآخر لا يمكنهما التحدث باليونانية على الإطلاق، حتى بدأت أضيف أسئلتي إلى أسئلتهما. وبهذه الطريقة تمكنت أنا والرجل اليوناني من التواصل معًا دون أن يعلم الآخرون. وصارت المحادثة على نحو شبيه بذلك:

– «لا فائدة من المقاومة. **من أنت؟**»
– «لا يهمني. **أنا غريب في لندن.**»
– «إذن، فأنت تعلم ما سيحدث لك؟ **كم مضى على وجودك هنا؟**»
– «افعل ما بدا لك. **ثلاثة أسابيع.**»
– «لن تكون أملاكها ملكًا لك أبدًا. **ماذا بك؟**»
– «ولن تكون لك أيضًا. **لم آكل منذ أيام.**»
– «سوف نطلق سراحك إذا وقعت. **أين نحن؟**»
– «لن أفعل أبدًا. **لا أدري.**»
– «لا تجني مما تفعله سوى إيذائها. **ما اسمك؟**»
– «دعني أتحدث إليها. **كراتيدس.**»
– «وقع، ثم يمكنك رؤيتها. **من أين أتيت؟**»
– «إذن، فلن أراها ثانيةً أبدًا. **أثينا.**»

في تلك اللحظة، فُتح الباب، ودخلت امرأة إلى الغرفة. كانت طويلة القامة، وشعرها أسود، وترتدي رداءً أبيض فضفاضًا. دخلت لتسأل عن السيد لاتيمر، لكنها عندما رأت الرجل المضمَّد على الكرسي، هتفت باسمه قائلةً: «بول!»

مزق كراتيدس الشريط الموجود على فمه، ونادى عليها. كانت تُدعى صوفي. اندفع ليعانقها، لكن لاتيمر أمسك بالمرأة وجذبها بعيدًا. وفعل الرجل الآخر الأمر نفسه مع كراتيدس. وعندما عاد الرجل ذو النظارات، أعطاني بعض المال، ثم حذرني، وهو يضحك ضحكة مخيفة، من التحدث مع أي أحد عن تلك الليلة.

عاد السيد لاتيمر، واصطحبني إلى العربة. وسرنا مرة أخرى مدة ساعات، والنوافذ مغلقة. وعندما توقفت العربة أخيرًا، خرجت منها، ووجدتني في الريف. وانطلقت العربة

مسرعة، تاركةً إياي بمفردي. ومن هناك توجهت إلى أقرب بلدة، وركبت أول قطار متجه إلى المدينة.

لا أدري أين كنت، أو مع من كنت أتعامل. كل ما أعرفه هو أنني أريد مساعدة ذلك الرجل المسكين. لقد أخبرت أخاك والشرطة بالأمر، وأخبرك به الآن يا سيد شيرلوك هولمز.»

سأل هولمز: «وما الذي فعلته يا مايكروفت؟»

أعطانا الأخ الأكبر إحدى الصحف، وأشار إلى إعلان نصه:

جائزة لأي شخص يدلي بمعلومات عن رجل يوناني يُدعى بول كراتيدس من أثينا، أو امرأة يونانية اسمها صوفي.

قال مايكروفت: «نُشر هذا الإعلان في جميع الصحف اليومية، لكن لم يتقدم أحد.»

سأل صديقي: «ماذا عن السفارة اليونانية؟»

وكانت الإجابة: «لا شيء.»

سأل هولمز: «هل اتصلت بالشرطة في أثينا؟»

وجَّه مايكروفت حديثه إلي قائلًا: «لهذا السبب يتمتع شيرلوك بالشهرة، أما أنا فلا. فهو يتسم بالنشاط في تقفي الآثار، أما أنا فلا. إذا كنت تود التحقيق في الأمر يا شيرلوك، فبالتأكيد ...»

رد هولمز: «شكرًا يا مايكروفت. سأحقق في هذه القضية، وسأبقيك أنت والسيد ميلاس على اطلاع بكل ما هو جديد. وفي هذه الأثناء، لو كنت مكانك يا سيد ميلاس، لتوخيت الحذر. فالسيد لاتيمر وصديقه يعلمان الآن أنك لم تبال بتحذيراتهما، وربما تكون في خطر.»

غادرت أنا وصديقي نادي ديوجينيز كلوب، وتوجهنا إلى شارع بيكر. توقفنا عند مكتب التلغراف حتى يبعث هولمز بعدد من الرسائل. بعد ذلك، وأثناء المضي في طريقنا، سألني هولمز عن رأيي في القضية.

قلت له: «يبدو لي أن لاتيمر قد خطف المرأة اليونانية، ربما من أثينا.»

قال هولمز: «أختلف معك يا واطسون. فلاتيمر لا يتحدث اليونانية على الإطلاق، لذلك لا أظن أنه قد ذهب إلى هناك قط. من ناحية أخرى، فإن السيدة تتحدث الإنجليزية. لذلك أعتقد أنها قد أتت إلى إنجلترا من قبل، والتقت بلاتيمر في إحدى مرات زيارتها. وربما تكون قد نشأت بينهما علاقة عاطفية. فهي لم تعط لميلاس انطباعًا بأنها كانت أسيرة.»

أكملت قائلًا: «أعتقد أنها شقيقة السيد كراتيدس. وأظن أنها تملك ثروة ما، وجاء أخوها إلى إنجلترا لإنهاء علاقتها بلاتيمر. لكن لاتيمر والرجل الآخر ما كان ليردعهما أي شيء، فأبقيا على كراتيدس سجينًا لديهما. ولم تكتشف هي الأمر سوى عندما دخلت عليهم صدفة. وبذلك فهي الآن سجينة لديهما أيضًا.»

صاح هولمز: «رائع يا واطسون! ويعتمد الأمر علينا في إنهاء هذه اللعبة. إن حالفنا الحظ، فسنتلقى ردًّا على الإعلان المنشور في الصحيفة. ففي النهاية لم تكن صوفي مختبئة من قبل، وربما تعرف أناسًا هنا، ومن ثم فقد نتمكن من إيجادهم جميعًا.»

وصلنا إلى شارع بيكر، وصعدنا السلم، وفتحنا باب الشقة. واندهشنا لرؤية مايكروفت هولمز في انتظارنا. قال لنا: «أدخلا، أدخلا.»

سأل هولمز أخاه: «كيف وصلت إلى هنا؟»

أجاب مايكروفت: «لقد سبقتكما باستقلال عربة. لقد تلقينا ردًّا على الإعلان، وكان من السيد جيه دافينبورت. وهو يقول إنه يعرف الآنسة كراتيدس، وإنها كانت تقيم في مارتليز، بباكنجهام.»

قال هولمز: «إذن، هذا هو مكانهم جميعًا. سنتصل بشرطة سكوتلاند يارد في الحال، ونصطحب المفتش جريجسون معنا.»

أضفت قائلًا: «من الحكمة إحضار السيد ميلاس أيضًا، فقد نحتاج إلى مترجم.»

قال هولمز: «نعم، رائع يا واطسون. والآن، لنبحث سريعًا عن عربة!»

بينما كنت أنا ومايكروفت ننزل السلم، استدرت ورأيت هولمز يمد يده في أحد الأدراج، ويسحب مسدسًا، ويضعه في جيبه ليلحق بنا بعد ذلك في الشارع.

كان الظلام قد بدأ يخيم على الأرجاء عند وصولنا إلى منزل المترجم اليوناني. لكننا اكتشفنا أن السيد ميلاس غير موجود. أوضحت صاحبة العقار الذي يقطنه أن رجلًا قد حضر للقائه، وغادرا معًا في عربة. وقالت إن الزائر كان رجلًا قصير القامة، يلبس نظارات، وضحكته غريبة.

أسرعنا من هناك متجهين إلى شرطة سكوتلاند يارد، وانضم إلينا المفتش جريجسون، وتوجهنا جميعًا إلى محطة القطار. وصلنا إلى باكنجهام في العاشرة والنصف، واستقللنا عربة بقية الطريق.

كان مارتليز منزلًا كبيرًا وكئيبًا يحيط به فناء كبير. كانت النوافذ مظلمة، وبدا المكان فارغًا.

أبدى هولمز ملاحظة، وهو يتحقق من الطريق المؤدي إلى المنزل: «لقد غادروا. هذه الآثار حديثة للغاية، وقد خلفتها عربة مليئة بالمتاع والراكبين.»

لم يفتح أحد الباب عند طرقه، ففتح هولمز إحدى النوافذ عنوة. وعندما دخلنا، وجدنا أنفسنا في الغرفة الكبيرة التي وصفها ميلاس. وكانت مجموعة الدروع اليابانية بجانب المدفأة. وبينما كنا ننظر حولنا، سمعنا صوت تأوه منخفضًا. كان يأتي من أعلى.

اندفعنا إلى الدور الثاني، واتبعنا الصوت حتى وصلنا إلى الغرفة. كان الباب مغلقًا من الخارج، لكن المفتاح كان لا يزال في الباب. فتح هولمز الباب، ودخل الغرفة. وفي لمح البصر، عاد إلى الرواق مرة أخرى، وهو يسعل ويحكم قبضته على صدره.

قال لاهثًا: «إنه غاز.» نظرنا داخل الغرفة، ورأينا مصباحًا تضيئه شعلة زرقاء صغيرة. كان هذا المصباح مصدر انبعاث غاز سام. وفي ضوئه الضعيف، رأينا شخصين منهارين في أحد الأركان. أخذ هولمز نفسًا عميقًا وعاد إلى داخل الغرفة. فتح إحدى النوافذ، وأمسك بالمصباح، وألقاه بالخارج. ورفعنا بعد ذلك الرجلين، وسحبناهما إلى الرواق.

بدا الإرهاق على وجهيهما، والجفاف على شفاههما من العطش. كانت أيديهما وأقدامهما مكبلة. كان أحدهما المترجم اليوناني، ميلاس. أما الآخر فكان وجهه شاحبًا ومغطى بالضمادات. كان بالتأكيد بول كراتيدس.

لم نتمكن من إنقاذ السيد كراتيدس المسكين، لكن ميلاس استرد عافيته خلال ساعة، وشرح ما حدث. كما توقعنا، زار الرجل ذو النظارات المترجم اليوناني. وما كان أمام ميلاس سوى العودة إلى باكنجهام، حيث أُجبر على استجواب كراتيدس ثانية. وما من شيء أقنع الأخ بالتنازل عن ثروة أخته. فُحبس الرجلان معًا في الغرفة المهلكة، بينما هرب لاتيمر وشريكه مصطحبين صوفي كراتيدس معهما.

لم نكشف أنا وهولمز الستار عن جميع تفاصيل القضية إلا لاحقًا. فتلقينا ردًّا على إعلان مايكروفت في الصحيفة من رجل كان يعرف الآنسة كراتيدس. أخبرنا أنها تنحدر من أسرة يونانية ثرية، وكانت في زيارة لإنجلترا عندما التقت بلاتيمر. علم أصدقاء الآنسة كراتيدس أن نوايا ذلك الإنجليزي كانت سيئة، وأرسلا إلى أخيها يخبرونه بالأمر. لكن عندما وصل أخوها إلى إنجلترا، اختطفه لاتيمر وشريكه. لم تعلم الآنسة كراتيدس حتى أن أخاها كان موجودًا في المنزل ذاته. لذا رجحنا أن الغرض من الضمادات كان إخفاء أخيها خوفًا من أن تلمحه مصادفة. وكما علمنا، لم ينجح الأمر.

بعد ذلك بشهور، لاحظت أنا وهولمز قصة غريبة في الصحيفة. كانت تشير تلك القصة إلى نهاية مأساوية لقيها الرجلان الإنجليزيان أثناء سفرهما إلى المجر بصحبة امرأة. وتوصلت الشرطة إلى أن الرجلين قد تشاجرا، وأثناء الشجار أصيب كلاهما بإصابات مميتة. وكان تعليق هولمز الوحيد هو أن الشرطة تكون مخطئة في بعض الأحيان، وأنه موقن أن لدى الأخت قصة مختلفة، قصة رأت فيها العدالة تتحقق أمام عينيها.

مغامرة تماثيل نابليون الستة

جلس المفتش لستراد من شرطة سكوتلاند يارد هادئًا. كان كثيرًا ما يزورنا أنا وشيرلوك هولمز عندما كنا نتشارك الغرف في شارع بيكر. وكان هولمز تواقًا دائمًا إلى معرفة ما كان يحدث في مقر قيادة الشرطة، كما كان المفتش يرحب بأية مساعدة يمكن لهولمز تقديمها.

سأل هولمز: «هل تعمل على أي شيء مثير للاهتمام، أيها المفتش؟»

أجاب لستراد: «لا، لا شيء يُذكر. حسنًا، ربما هناك شيء ما، لكنه قد يثير اهتمام دكتور واطسون أكثر منك. أقول ذلك لأنه يبدو أنني أتعامل مع إحدى صور الجنون. فهل من سبب آخر قد يدفع أحدًا لتكبد عناء تدمير تماثيل الإمبراطور الفرنسي نابليون؟»

قال هولمز، محبطًا: «آه، حقًّا.» واسترخى في جلسته على الكرسي.

سأل لستراد: «هل من تفسير آخر لذلك؟»

– «هذا الرجل يقتحم المنازل، ولا يسرق أي شيء، ثم يحطم تماثيل نابليون التي يجدها هناك.»

قال هولمز، وقد اعتدل ثانيةً في جلسته: «أكمل، رجاءً.»

أكمل لستراد حديثه قائلًا: «بدأ كل شيء منذ أربعة أيام. كان أول بلاغ من رجل يُدعى مورس هدسون. يمتلك السيد هدسون متجرًا صغيرًا في طريق كينينجتون حيث يبيع اللوحات والتماثيل الصغيرة. يبدو أنه ومساعده كانا في الجزء الخلفي من المتجر عندما سمعا صوتًا عاليًا لتحطم شيء ما. اندفعا إلى الجزء الأمامي من المتجر لمعرفة ما حدث، وعثرا على تمثال صغير من الجبس لنابليون على الأرض، وقد تهشم. لكن لم يكن هناك أحد في المتجر.»

سأل هولمز: «هل كان تمثالًا كاملًا أم تمثالًا نصفيًّا مكونًا من رأس وكتفين؟»